شاعر الوطنية
على محمود الغاياتى

بقلم

الأستاذ الدكتور

حسن أحمد الكبير

عميد كلية اللغة العربية ـــ جامعة الأزهر

فرع الزقازيق ـــ الأسبق ـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

شاعر الوطنية : على محمود الغاياتى

من المفاخر التى يتيه بها الإنسان الدمياطى على مر الزمن، أن بلده دمياط العامرة، أسهمت بجهود أبنائها المخلصين فى شتى ميادين العلم والمعرفة، والفكر والأدب، والحضارة والتقدم العلمى، مما سجله التاريخ بمداد من الفخر والاعتزاز، وستظل جهود علمائها ومفكريها منارة من أهم منارات الشرق العربى كله، تنير السبيل لكل راغب فى التقدم والعمل الجاد، وإنكار الذات، والحرص على خدمة وطنه، والرقى به إلى آفاق المجد والعزة والإباء.

ويطول بنا الحديث إذا أردنا أن نستقرئ التاريخ الدمياطى عن أسماء أبنائه الذين حباهم الله من فضله بالعلم والمعرفة، فكانوا رموزا للتفوق فى العديد من المجالات، وأسهموا بجهودهم فى مسيرة هذا الوطن، وتحقيق آماله وطموحاته، وإن كان الواجب علينا أن نذكر ببعض هؤلاء الأعلام الذين تعرفنا عليهم عن قرب، وسبقت أعمالهم إلى التعريف بهم، فكانوا مصابيح على طريق الكفاح من أجل حياة حرة كريمة، من هؤلاء الأعلام: الدكتور على مشرفة، والدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور محمد حسن الزيات ، والمهندس حسب الله الكفراوى، والدكتورة بنت الشاطئ، ومشايخى وأساتذتى فى معهد دمياط الدينى : الشيخ كامل الخضرى شيخ المعهد، والعالم الزاهد الشيخ محمود جلال من قرية البستان، وفضيلة الدكتور عبدالغنى الراجحى العميد الأسبق لكلية أصول الدين بأسيوط. وهو من أبناء قرية ميت الشيوخ، والشاعر المبدع الشيخ طاهر اللبان من مدينة دمياط العامرة، وفضيلة الأستاذ الدكتور حسن جاد الشاعر المتفرد عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة، والأخ العزيز فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود رئيس جامعة الأزهر وهما من أبناء

الزرقا محافظة دمياط، كما أن من شعراء دمياط: الشاعر الكبير محمد الأسمر، والشاعر المبدع طاهر أبوفاشا، والشاعر الأديب على الغاياتى، الذى نعرض لجانب من وطنياته فى هذه السطور ٠

لقد عاش الأديب الشاعر: على محمود الغاياتى فى فترة من أهم فترات التاريخ المصرى وهى الفترة ما بين ١٨٨٥ ــ ١٩٥٦م وهى فترة تلاحقت فيها الأحداث السياسية والوطنية والاجتماعية على أيدى زعماء مصر الأحرار، الذين ناضلوا نضالا منقطع النظير من أجل مصر وحريتها واستقلالها، وفى مقدمتهم أحمد عرابى، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، ومحمد فريد وما واكب ذلك من دعوات إصلاحية حمل لواءها السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده، فكانت هذه الأحداث المتعاقبة، والحركات المتشابكة أضواء باهرة أخذت بفكر الغاياتى وملكت عليه مشاعره. فدفعت به إلى المشاركة الفعالة بشعره الآسر فى الدفاع عن الوطن، والتغنى بمواقف أبطال الحرية، وزعماء الإصلاح، والدعوة إلى النضال من أجل الحرية الحقيقية لأبناء وطنه، والتصدى لكل من ينال من هذه الحرية حتى يقوم فى مصر نظام ديمقراطى صحيح، يحقق الحرية والعدل والكرامة لبنى وطنه ، فكان بهذا الاتجاه الوطنى فى طليعة شعراء الوطنية الذين يصدرون فى شعرهم عن الهيام بمصر، ويستهدفون بعث العاطفة الوطنية، وإثارتها فى قوة دافقة، بما يجعله أشبه الناس فى شعره بمصطفى كامل فى خطبه[1]، فلقد نجح مصطفى كامل ــ وكان لا يزال فى ريعان شبابه ــ فى غرس روح الوطنية فى نفوس الشباب، من أمثال الشاعر على الغاياتى، وربى فيهم روح الجهاد، ونمى فيهم الدعوة إلى المطالبة بإلحاح بدستور

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ١/ ٦٨ ٠

تحكم بواسطته البلاد حكما ديمقراطيا سليما، يستمد قوته من روح الإسلام ومبادئ الشريعة السمحة.

ـ وقد كان لشغف الغاياتى بالصحافة، وتطلعه إلى العمل فيها، حتى تتهيأ له الفرصة للمشاركة فى الأحداث المحيقة بوطنه، الدافع له إلى هجرته من دمياط وهو ابن الثانية والعشرين إلى القاهرة، حيث اشتغل بالصحافة وشارك بقلمه فى العمل ضد الاحتلال، والتشهير بسياسة الاستعمار، والثورة على الأوضاع الاجتماعية الظالمة، التى كان ينفذها أذناب الاستعمار من الخونة المأجورين، فجهر بما لا يستطيع به كثير من الناس، وصاغ ذلك كله شعرا نشره فى الجرائد والمجلات: مثل مجلة الجوائب المصرية، التى كان يعمل بها، وجريدة اللواء، وجريدة العلم، جريدتى الحزب الوطنى، مما أثار الاستعمار وأعوانه عليه، وتقديمه للمحاكمة، ثم الحكم عليه بالسجن سنة مع الأشغال، إلا أنه استطاع الفرار من البلاد إلى الآستانة مقر الخلافة العثمانية آنذاك، ثم إلى سويسرا، وظل بعيدا عن وطنه سبعة وعشرين عاما، أسس خلالها جريدة : "منبر الشرق" باللغة الفرنسية ما عدا صفحة واحدة باللغة العربية كان ينشر فيها أشعاره التى ينظمها أثناء غربته، فكانت هذه الجريدة لسان حال الشرق والدفاع عن الشرقيين، وقد صدر جريدته هذه منذ صدورها بهذين البيتين:

باسم الكنانة واسم شعب ناهض ∴ لا باسم أحزاب ولا زعماء
كل يزول وينقضى أما الحمى ∴ فوديعة الآباء للأبناء

ولما عاد إلى الوطن فى يونية سنة ١٩٣٧م عمل محررا فى جريدة السياسة اليومية، حتى تمكن من استئناف إصدار جريدته "منبر الشرق" فى مايو سنة ١٩٣٨م باللغة العربية، واستمرت تصدر تباعا حتى رحيله إلى لقاء ربه عام ١٩٥٦م.

لنستمع إليه فى إحدى مقطوعاته التى عنون لها: "وطن يناجى ربه :

رب إن البلاد أرهقها الظلم ∴ وحاقت بأهلها البأساء

رب إن الصدور أحرجها الوجد ∴ وأودت بحلمها الأرزاء
فتدارك بلطفك النيل حتى ∴ لا تجارى حياة مصر دماء[1]

ويقول الغاياتى منددا بالخديو عباس الثانى بعد أن تنكر للمناضلين وهادن الإنجليز المحتلين:

أعباس هذا آخر العهد بيننا ∴ فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ∴ ننال إذا رمنا الحياة عقابا ؟!
ونيأس من آمالنا فيك كلما ∴ قضيت علينا أن نكون غضابا؟
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها ∴ وأصليتنا بعد "الوفاق"عذابا[2]
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى ∴ ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغى "غورست"[3]إلا مكيدة ∴ تحول أقلام السلام حرابا
وها قد رمى حرية القول رمية ∴ بسهمك تجنى للبلاد خرابا[4]

ويطعن الغاياتى نقمته على الوزارة القائمة آنذاك ـ [وزارة بطرس غالى الذى ولاه الاستعمار رئيسا للوزارة] ـ لسنها قانون المطبوعات الذى قيد حرية الصحافة، وكمم الأفواه، وكبل الحريات فيقول:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة ∴ ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ∴ ولكن ستلقى دون ذاك أثاما
وزارة خداع أقامته بيننا ∴ يد الحاكمين الآثمين فقاما
وبين يديه عصابة بطرسية ∴ تصوب نحو المصلحين سهاما
جنى ما جنى فى دنشواى وغيرها ∴ ولم يكفه حتى استحل حراما
فقيد أقلام الصحافة علها ∴ إذا أبصرت سوءاته تتعامى[5]

---

(١) ديوان وطنيتى ص٤٦ .
(٢) يقصد بسياسة الوفاق هنا : الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا وهو: أن تنفرد فرنسا باحتلال الشام وتنفرد بريطانيا باحتلال مصر ثم انحياز عباس إلى المستعمر ضد الوطنيين .
(٣) غورست: هو المندوب البريطانى بعد كرومر وهو الذى أوعز إلى حكومة بطرس غالى بإصدار قانون المطبوعات الذى كان نكبة على الصحافة والصحفيين.
(٤) ديوان وطنيتى صـ٦٩، ٧٠ .
(٥) ديوان وطنيتى ص٧٠ .

يقول الدكتور مختار الوكيل ــ صهر الشاعر على الغاياتى ــ عن هذه النماذج الشعرية: "لقد كانت هذه النماذج اليسيرة من الشعر الوطنى الملتهب المتأجج حماسة وعنفا : "عريضة الإتهام" التى قدم بها على الغاياتى إلى المحاكمة"(١).

وطنيات الغاياتى الشعرية:

لقد كان أهم ما يميز شخصية الغاياتى: الروح الوطنية الثائرة على الظلم والاستعمار وأعوانه، ولذلك كان شعره كله فى الأحداث السياسية، والقضايا الوطنية، مما جعل الغرض الأساسى فى شعره: "الاتجاه الوطنى" فقد انفعل الغاياتى بما يحدث فى وطنه من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية، وعبر عما تجيش به مشاعره إزاء ذلك كله، وما يعتمل فى فؤاده نحوها أصدق تعبير، وبذلك استطاع ــ كما يقول الدكتور مختار الوكيل ــ "أن يضرب على الوتر الحساس، فأصغى إليه الشباب والشيوخ، واستمعت مصر كلها لأناشيده الوطنية، وأنغامه الشجية، فقد أحست فيها تعبيرا عن آمالها وآلامها. وصدى لمشاعرها ووجداناتها"(٢).

لقد أحب الغاياتى وطنه حبا نمته لديه الحوادث التى تجرى على ساحته، وكانت الصحافة هى المهنة الوحيدة التى تتفق مع ميوله الثورية، والطريق الذى يتيح له نشر آرائه وأفكاره نثرا وشعرا، فأخذ الغاياتى ينشر فى صحف الحزب الوطنى حماسه الثورى فى قصائد نارية، لا يهاب بطش الاحتلال، ولا يأبه بسلطان الحكام ، ــ عملاء الاستعمار ــ، ولا يجامل أصحاب المقامات الأدبية الذين كانت لهم شهرتهم فى المحافل الأدبية، مثل شوقى وحافظ

(١) انظر: خمسة من شعراء الوطنية ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م صـ٣٠٤ .

(٢) على الغاياتى: حياته وشعره . رسالة ماجستير مخطوطة صـ٢٧ للدكتور محمد جمعة أمين .

وإسماعيل صبرى وغيرهم، ممن كانوا يهادنون المستعمر، ويغضون الطرف عن مخازيه وجبروته، بل كان يهجو أمثال هؤلاء المتقاعسين الموالين للحاكم والمحتلين، حتى لو كان ذلك هو أمير الشعراء أحمد شوقى، يقول الغاياتى لشوقى حين نشر فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨، أن "الدستور" لا يستطيع الخديو عباس أن يصدره إلا برضى الإنجليز:

يا شاعر النيل العظيم أما ترى ∴ للنيل إلا أسوأ الحالات؟!
ما كنت أحسب أن مثلك وهو فى ∴ شعراء مصر صاحب الآيات
يجنى على الشعب الكريم جناية ∴ ويود أن يبقى مع الأموات
أو أنت تروى عن سواك حديثه ∴ كيما نرى الدستور ليس بآت[1]؟

وختم قصيدته بقوله لشوقى:

فعليك إصلاح الحديث فإنه ∴ عندى أشد أذى من الفلتات[2]

لقد كان شعر الغاياتى صواعق ماحقات لأعداء الوطنية. وغاصبى خيرات الوطن، وحماسة الشباب المتوقد، مما حدا بأساتذته وإخوانه فى الوطنية ، أن يلحوا عليه ألا يترك أشعاره الفياضة بالتعبير عن آمال وطموحات الوطن، للإهمال والضياع، وأن يجمعها فى ديوان حتى يكون سراجا وهدى للشباب، وذكرى وعبرة للآباء، وقد لاقت هذه الدعوة ارتياحا لدى الغاياتى وقبولا، بعد أن أيدها المرحومان الزعيم محمد فريد، والشيخ عبدالعزيز جاويش[3].

ولما كان الغاياتى يرى فى قصائده أنها معالم على الطريق لنهضة البلاد ورقيها، وسبيل إلى حريتها واستقلالها ، وتسجيل لمشاعر الوطنيين بالنسبة للأحداث السياسية وما أكثرها فى ذلك الوقت، فقد جمع قصائده الوطنية التى بلغت سبعا وأربعين قصيدة

(١) ديوان وطنيتى صـ ٧٠ .
(٢) ديوان وطنيتى صـ ٧٠ .
(٣) انظر: منبر الشرق. العدد السابع الصادر فى ١٠ من يوليو سنة ١٩٣٨م.

ومقطوعة من الشعر الوطنى، فى ديوان سماه: "وطنيتى" ونشره عام ١٩١٠م إلا أنه سرعان ما صودر بأمر من النيابة العامة ورفعت قضية على مؤلفه، وكاتبى مقدمته: الشيخ عبدالعزيز جاويش، ومحمد فريد، وعلى بانعيه ، ونظرت القضية أمام محكمة الجنايات بالقاهرة، وكانت هذه أول قضية صحفية تقدم مباشرة إلى محكمة الجنايات، بمقتضى قوانين المطبوعات التى أوحى بها الاحتلال. وأصدرتها الحكومة المصرية، فحكم فى السادس من أغسطس سنة ١٩١٠م غيابيا على الغاياتى بالسجن سنة مع الشغل، وعلى الشيخ عبدالعزيز جاويش بالسجن ثلاثة أشهر ونفذ الحكم فى الحال، وبحبس كل من الشيخ القزوينى، وإلياس أفندى دياب الموزعين لهذا الديوان بشهرين مع إيقاف التنفيذ، أما محمد فريد، فقد كان غائبا عن مصر، فأجلت محاكمته حتى يعود، فلما عاد سنة ١٩١١م حكم عليه بالسجن ستة أشهر ونفذ فيه الحكم فى الحال.

وفى ذلك يقول الغاياتى من قصيدة طويلة بلغت واحدا وثمانين بيتا، بعنوان: "هجرتى بعد وطنيتى":

ولست أرى فى سجن الكرام مهانة ∴ ولكنه للمجد والحمد جامع
فإن سجنوا عبدالعزيز فإنه ∴ له بين حبات القلوب مرابع
فما لهمو والغيظ يفرى قلوبهم ∴ جنيت، فراموه بما أنا واضع
ورامـوا "فريدا" مثله وترقبوا ∴ لقاه، وفى هذا اللقاء مصارع
إذا كنت بالتأليف أصبحت جانيا ∴ وسجنى عاما فيه للحر قامع
فما كان تقريظ الكتاب جناية ∴ ولكن أعداء البلاد تخادع

نعم. لقد وجدها المستعمر وأعوانه فرصة للتنكيل بالأحرار، وليكون ذلك عبرة لأمثالهم مما يناوئون الحكام ويعادون الاستعمار، فمصادرة الديوان، وتقريظ الزعيم محمد فريد والوطنى الشيخ عبدالعزيز جاويش، كان فرصة للمستعمر وأعوانه الحكام للتخلص من زعماء الحركة الوطنية، لكن أنى لهم ذلك؟!

إن ديوان "وطنيتى" اسم يدل على المسمى كل الدلالة، فالديوان الذى ضم سبعا وأربعين قصيدة ومقطوعة، مجموع أبياتها ثلاثة وأربعون وتسعمائة، من أول صفحة إلى آخر صفحة فيه يدور حول موضوع واحد هو الوطنية، ما عدا صفحتين اثنتين، اشتملتا على بعض الأشعار العاطفية التى نظمها فى أيام الصبا الباكر ومجموعها أربعة عشر بيتا، فكان الغاياتى فى نشر ديوانه على هذا النحو الذى لم يكن معروفا فى نشر الدواوين قبله، مجددا وصاحب طريقة مبتكرة، مما يعد وثبة من وثبات الشاعر فى عالم الشعر والأدب.

وإذا كانت المحافل الأدبية قد تعارفت على أن شوقى أمير الشعراء، وشاعر العروبة، وحافظ إبراهيم بأنه شاعر النيل، فإن الغاياتى بهذا الاتجاه الوطنى الذى استوعب ديوانا كاملا يعد بلا جدال شاعر الوطنية ، الرافع لواءها، يؤيد ذلك دراسة حياته الأدبية التى لم يحد فيها عن الإخلاص لوطنه، والدفاع عنه على مدى حياته الأدبية كلها، وفى أحلك الأزمات والمواقف، فموقفه من أعداء الوطن والمحتل الغاصب واحد لم يتغير، ولم يتبدل، ولم يحد عنه مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال، فقد التزم فى دعوته بمحاربة الاستعمار، ومناهضة الاحتلال، والتحريض على الثورة ضده، ومناصرة الوطنيين وحثهم دائما على مقاومته، لا يثنيه عن ذلك عوامل الاضطهاد والغربة وملاحقة المستعمر وأعوانه، ولذلك جاء شعره صادرا من إحساسه العميق بحب الوطن، نابعا من عاطفته الوطنية، التى تشبعت بها نفسه، وفاضت بها مشاعره، وكانت أسمى أهدافه وغاياته، يقول أحد الباحثين: "لقد كان شعر وطنيتى" مرآة عكست وجدان الشاعر، وصورت ما يختلج فى نفسه بوصفه ــ آنذاك ــ شابا ثائرا من شباب الحركة الوطنية آمن بدوره فى خلاص أمته والتعبير عنها فى جرأة منقطعة النظير، وشجاعة نادرة، وجهر بالحق

فى غير مداراة ولا مداهنة، ووضوح لا يعرف الالتواء أو الغموض"[1].

إن شعر الغاياتى فى ديوانه: "وطنيتى" يعكس صورة شعب يناضل لتخليص بلاده من ربقة الاحتلال الإنجليزى، ويطالب بالدستور لإرساء معالم الديمقراطية الحقة، ويتصدى لأذناب الاستعمار وأعوانه فهو شعر ينطق بلسان الأمة، ويعبر عن شعورها وآمالها أصدق تعبير.

يقول الأستاذ فتحى رضوان: "وديوان وطنيتى لم يكن مجرد ديوان شعر فحسب، ولكنه يعد وثيقة من وثائق الحركة الوطنية"[2].

وإذا كان معظم شعر : "وطنيتى" جاء فى مرحلة الشباب، فإن هذا الشعر يترجم عن نفس شاعرة، متوثبة أبية، مؤمنة بحق وطنها عليها، نفس ترفض الذل والخنوع والرضا بالأمر الواقع، وتسعى جاهدة إلى الحصول على حقها وحق الشعب كله فى حياة حرة كريمة، أساسها العدل والإنصاف والمساواة، وعدم التفريط فى ثروات البلاد، والوقوف فى وجه العتاة المحتلين، والتشهير بمن والاهم ومالأهم، وفضح ألاعيبهم وما جروه على البلاد من نكبات وويلات.

إن القارئ لشعر الغاياتى فى ديوان: "وطنيتى" لا يخالجه شك فى أن الشاعر كان ينظم شعره من حبات قلبه، ويغذيه بمشاعره وأحاسيسه الوطنية، وثورة نفسه الأبية، وحبه الجارف لبلاده، ذلك الحب الذى شغل حواسه منذ الصبا الباكر، فنفذت دعوته الإصلاحية والتحررية إلى القلوب، وأصغى إليه كل محب لوطنه، غيور على بلاده، واستمعت مصر كلها بل والعالم العربى والإسلامى إلى أنغامه الوطنية الشاجية، فأحيا فى النفوس الأمل، ودفعها دفعا قويا إلى

(١) انظر: على الغاياتى وشعره صـ٧٩ .
(٢) عصر ورجال لفتحى رضوان صـ٣٠٤ .

السعى من أجل حريتها المسلوبة، وانتزاع حقها المهضوم من أولئكم الطامعين والمحتلين الغاصبين، لنستمع إليه وهو يحذر الشعب من الركون إلى الاستسلام أو الخضوع إلى اليأس فيقول:

فلا تيأسوا فاليأس مجلبة الردى ∴ وشدوا إلى نيل الرجاء رحالا
ولا تفزعوا من حاكم أو حكومة ∴ ترى نشر آمال العباد ضلالا
وسيروا إلى ما تأملون بحكمة ∴ ولا تحسبوا الفوز المبين محالا

ولهذا سيظل ديوان: "وطنيتى" للشاعر على الغاياتى، أنشودة الحرية الغالية، ولحن الإباء العربى، ونشيد للكرامة والعزة، والصيحة التى تفزع كل معتد غاصب، وقبس الوطنية الذى يشع ليبعث الأمل فى النفوس ، ويدفعها دفعا إلى السعى الدءوب إلى تحقيق العزة والكرامة، والعمل على إرساء قيم الحق والعدل والحرية .

رحم الله شاعرنا على الغاياتى، الشاعر المجاهد، صاحب النفس الأبية، والهمة العالية، والعزيمة الصادقة، الذى أدى رسالته الوطنية منذ شبابه حتى رحل إلى عالم الخلود، على أحسن وأفضل ما يكون الأداء، على الرغم مما لاقاه من الاضطهاد والنفى والتشريد والملاحقات الذى لم يقر له معها قرار، لكنه كان سعيد النفس قرير العين، متسلحا بإيمانه بربه، وعاطفته الدينية الراسخة، وبرسالته الوطنية التى وضعها نصب عينيه، وضحى فى سبيلها بما يعجز عنه الكثيرون حتى أتاه اليقين، ونسأله سبحانه جل فى علاه، أن يجازيه عن شعب مصر وأمة الإسلام الجزاء الأوفى جزاء ما قدم وبذل واحتمل .

أ.د/ حسن أحمد الكبير
عميد كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر
فرع الزقازيق ـ الأسبق ـ